# الباب الأول
# الفصل الأول
## العالم قبل البعثة

عالم يتداعى يشارف منتهى أجله ، ويسرف في متاهات الضياع ، لقد بلغت البشرية فيه الدرك الأسفل من الانحطاط ، وغشيت العالم كله ظلمات بعضها فوق بعض . فالحضارة قد جمدت روح الحياة في عروقها ، ولا عجب فقد بلغ العقل البشري منتهى عجزه في حل أزمة الإنسانية الممزقة . . .

### بيزنطة

انتشرت فيها مسيحية مشوبة بأغراض سياسية ، وقد شاخت بعد شباب وبدأ مجدها ينزوي رويداً رويداً ، وتعددت مذاهبها ، وانقسم كلّ مذهب إلى فرقة وحزب وتنكرت كل فرقة لغيرها ، واضطرمت نيران العداوة فيما بينها .

دب الخلاف ، واستشرى الضعف الخلقي والذهني ، مما أدى

إلى الولوع بالجدل العقيم حتى قال أحد رهبان الكنيسة يصف أحوال بعض المدن البيزنطية :

« كانت أطراف المدينة جميعاً ملأى بالجدل ، ترى ذلك في الأسواق ، وعند باعة الملابس ، وصيارفة النقود ، وباعة الأطعمة ، فأنت تريد أن تبدل قطعة من ذهب فإذا بك في جدل عما خلق وعما لم يخلق . وأنت تريد أن تقف على ثمن الخبز فيجيبك من تسأله : الأب أعظم من الابن ، والابن خاضع له . وأنت تسأل عن حمامك ، وهل ماؤه ساخن فيجيبك غلامك : لقد خلق الابن من العدم »[1] .

وعقدت المؤتمرات اللاهوتية للبت في هذه المسائل الجدلية العقيمة الكثيرة فلم يكن بإمكانها الوصول إِلى كشف غوامضها . واستمرت تذر اللب وتأخذ القشور . فصار الجدل علماً عليها وتضاءلت سطوتها في البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمي بجوارها .

ولم يكن أتباع النصرانية على استقرار في عقيدتهم ، ولا على ثقة بأحبارهم وأئمتهم ، واستحكمت الأهواء ، واشتد القذف بينهم بالمروق والكفر والضلالة ، وذلك للخلاف حول المسيح وأمه . .

---

(١) الرسول / محمد حسين هيكل .

وحول الأقانيم الثلاثة ونشأت الفرق الكثيرة وتباعدت الأقوال بينها فالأريوسية تقترب من التوحيد والنسطورية تقارب من الطبيعة الإلهية . . ومما زاد الأمر تعقيداً اشتداد البلبلة السياسية ومنازعات العروش والقتال المستحدث بين الطوائف . . فلا هدوء ، ولا استقرار ، ولا سلام ، ولا أمان من السياسة ولا من رجالها ولا من الدين الذي غير المنحى الذي وجد عليه ولا من رهبانه ولا أمن من الأخلاق في ذلك الواقع المتخلف الممزق . . .

لقد ران على الأفئدة ظلام إِثر ظلام وطويت العقول في غياهب السواد المشتت ، شرك يشوبه توحيد يزعم أنه يحارب شركاً محضاً ؟! حتى كان من بين الطوائف المسيحية في تلك الفترة من ينكرون أن لعيسى جسداً يزيد على طيف يتبدى به للناس .

### الفرس

قد سخر المجوس من عقيدتهم ، وكمنت حول أحابيلها كوامن الغيلة واضطرمت فيها الفتنة ، وتحكمت الأهواء ، وصارت قدرة فعالة ، وغاض فيها ماء الوفاء ، وبلغ الضياع منتهاه . لقد انتشرت فيها أفكار ( مزدك ) داعية الإباحية والفوضى في الأموال والأعراض وأخذ يغالي في الثنوية ، ويؤكدها في النفوس معتمداً على الهرطقات والنزعات الروحية الملتوية ، وقد استطاع إقناع قباذ ( والد كسرى أنو شروان ) ببذل زوجته لمن يشتهيها ليعلم الناس

صدقه في إيمانه ، وتقيدوا به في ترك الأعراض ، ليجعلوا نساءهم مباحات وكل هذا يستمر في ظل العقيدة المجوسية التي تجمع الأرواح والشياطين ، وتقارب بين الظلام والنور وهذا يدل على الدرجة التي وصل إليها العقل البشري من الانحطاط والضعف والجمود . . .

عالم يعيش على شريعة الغاب ويتخبط في عقابيل الظلام ، قتال دائر بين الشرق والغرب ؛ والإنسانية آنذاك تمر في خط منكسر تتقلب على جمر الفرقة والظلم والفقر والجهل لا قيمة للإنسان ، ولا مكانة إِلا لحاكم قوي ، ولقد صور أحد الفنانين منظراً يمثل واقع الإنسانية . مثلها بصورة كثيبة سوداء ، كسفت فيها شمس الحياة والسعادة ، وعلت عليها سيوف مقطرة بدماء الأبرياء ، لقد اكتوت النفوس بالجاهلية ، المميتة ، وخيمت على الدنيا ظلال الاستغلال والضياع وبذا تكون الإنسانية قد بلغت الدرك الأسفل من الانحطاط ، وغشيت العالم كله ظلمات كثيفة من الجهل والانحلال والأباطيل ، وعبدت الجمادات والنيران والحيوانات ، وقدست الملائكة والجن والشياطين ، وخضع الناس لأرواح الموتى ومظاهر الطبيعة بخنوع وذل .

عالم خلاصة ما يقال فيه ينتظر المصلح . . . وينتظر شيئاً خفياً . . .

وقد وصف الشاعر العالم آنذاك قائلاً :

فعــاهــل الــروم يطغــى فــي رعيتــه
وعـاهـل الفـرس مـن كبـر أصـم عمـي

## أوربا

كانت في غياهب النسيان ، تمرح في محاربة القبائل المهاجرة من الشرق ، وتضطرب في الدفاع عن مدنها الصغيرة الشبيهة بالمدن التي ليس لها ذكر في القرن العشرين وأجمل ما يقال عنها في ذلك اليوم أنها قارة موجودة في الكرة الأرضية بحقيقتها مفقودة بروحها ومشاركتها للصراع بين الروم والفرس آنذاك وهذا يدل على مدى الانحطاط العام الذي كان يكتنفها . . .